مجلة العلوم الإنسانية ـــــــ عدد 20- ديسمبر 2003، ص.ص. 127-153

الاباضية عند الجغرافيين وأصحاب الرحلات (البلدانيون)

ملخص

يتناول هذا البحث الاباضية مذهبا ومجتمعات ومواطن وعادات وتقاليد عند نوع معين من المصادر العربية الإسلامية وهي كتب البلدانيين أي الجغرافيين وأصحاب الرحلات.

لقد اهتم هؤلاء البلدانيون بذكر الاباضية في كتاباتهم وكأنها أثارت انتباههم أو إعجابهم فأبدوا موقفهم الإيجابي أو السلبي من الاباضية، وهذه الدراسة تتناول جوانب من الموقف الايجابي للبلدانيين من الاباضية.

د/ إبراهيم بحّاز
قسم التاريخ
جامعة منتوري،
قسنطينة، الجزائر

ليس غريباً أن يهتم كُتّاب الملل والنحل بالإباضية ...

وليس غريباً كذلك أن يهتم المؤرخون بالإباضية ...،

فهؤلاء جميعاً هم الذين اختاروا تسمية الإباضية لأتباع جابر بن زيد الأزدي، وهم الذين سجّلوا أحداث التاريخ، وصنفوا الفرق الإسلامية ضمن مجموعات أملتها عليهم ظروف الزمان والمكان التي كانوا يعيشونها ... وأجمعوا على أن الإباضية فرقة من فرق الخوارج، فكتبوا عنها ما شاؤوا أن يكتبوا ونسبوا إليها ما رأوا أن ينسبوا دون العودة إلى علماء الإباضية أو كتاباتهم ...

فليس غريباً إذن، أن يكتب هؤلاء جميعا عن الإباضية سلباً أو إيجاباً، ولكن الغريبَ فعلاً أن يكتب البُلدانيون (الجغرافيون والرحالة) عن الإباضية، إذ حددوا مواطنهم وأجناسهم وكثيراً من عاداتهم وتقاليدهم...، فكانت لهم نظرتهم تجاه الإباضية مذهباً ومجتمعات، الأمر الذي، يبدو لي، أنه لا يتكرر مع المذاهب الأخرى بنفس الكثافة والنظرة والموقف.

فكيف كانت كتابات هؤلاء البلدانيين؟ وما هو موقفهم من الإباضية والإباضيين؟

Summary

This study deals with Ibadism as a doctrine in some specific Arabic and Islamic sources, communities, areas, customs and traditions such as the works of the geographers and travelers. These authors gave much attention to Ibadism in their respective works, perhaps because it attracted their attention on their admiration.

So, they expressed their positive or negative opinions on Ibadism. In fact, this study concentrates on some aspects of those authors position towards Ibadism.

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر 2003.

أسئلة سنجيب عنها في هذه الصفحات، وقبل ذلك من هم هؤلاء البلدانيون؟

التعريف

من المعروف أن المسلمين اهتموا كثيراً بعلم الجغرافيا والرحلات، فصنفوا كتبا كثيرة في هذا المجال، وحملت جملة من تلك الكتب عنوان: "المسالك والممالك" لأن هدف الجغرافيين والرحالة، هو تحديدُ المسالك وضبطُها، وذكرُ الممالك التي تأتي في مسالك المسافر إلى البقاع المقدسة أو التي تفضي إلى المدن التجارية الكبرى أو إلى عواصم الممالك ... وهكذا نلاحظ أن اهتمام البلدانيين بهذا النوع من الكتابة، إنما سببه فريضة الحج أو التجارة وكليهما ركن من أركان الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ثم شيئاً فشيئاً مال بعض المتأخرين منهم إلى المغامرة وذكر العجائب والآثار فجاءت عناوين كتبهم تصرّح بهذا الميل الجديد. عموماً هذا النوع من الكتب هي أدلة أمينة للوصول إلى المبتغى الديني أو الاقتصادي أو حتى العلمي، إذ ما أكثر الرحلات العلمية من المغرب إلى المشرق أو العكس، وما ارتقت الحضارة الإسلامية إلا بالدين والعلم والاقتصاد.

كثيرة هي الكتب الجغرافية التي لم تصلنا، وتعود إلى القرون الأولى للإسلام وبخاصة القرن الثاني الهجري، إلا أن البلدانيين الذين جاؤوا من بعدهم، أدركوها وحافظوا على جزء منها ضمن كتبهم التي صنفوها فيما بعد. ولعل الجغرافي الأول الذي نبدأ به هو اليعقوبي أحمد بن واضح (ت 284هـ/ 898م) جغرافي رحالة ومؤرخ شيعي معتدل له كتاب "البلدان" وهو كتاب صغير الحجم إلا أنه جمّ الفائدة، غزير المادة، طاف البلدان مشرقاً ومغرباً وسجل ما رآه.

في القرن الرابع الهجري/ 10م يبرز ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت 327هـ/ 977م) بكتابه "صورة الأرض"، والمقدسي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البنا (ت 388هـ/ 998م) في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، والإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول من القرن 4هـ/ 10م) وهو صاحب كتاب "المسالك والممالك".

من المعروف أن ابن حوقل كان شيعيا، وقد عاصر الفاطميين الشيعة الإسماعيلية ببلاد المغرب، وكان يكتب لهم، أما المقدسي فشافعي، وقد وقعت له حادثة مع المالكية في بلاد المغرب، في حين لم أطلع على مذهب الإصطخري.

وفي القرن الخامس الهجري/ 10م ينفرد البكري أبو عبيد الله (ت 487هـ/1094م) وهو أندلسي بكتابه: المسالك والممالك الذي استخرج منه كتاب "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" ولقد اعتمد كثيراً على كتاب لم يصلنا للورّاق عاش في القرن 3هـ/ 9م. والبكري لم يرحل إلى المغرب وإنما كتب مسالكه ببلاد الأندلس.

في القرن السادس الهجري/ 12م نجد الإدريسي أبا عبد الله الشريف (ت 548هـ/ 1153م) وكتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ومن المعروف أن الإدريسي كان ميالاً إلى ملوك صقلية النورمانديين، بل إنه كان يكتب لروجر Roger الملك النورماندي.

ويتميز القرن السابع الهجري/ 13م بكثرة البلدانيين من المشرق والمغرب، يتقدمهم ابن جبير محمد بن أحمد (ت 614هـ/ 1216م) صاحب الرحلة المعروفة "برحلة ابن جبير" ثم ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م) صاحب أول معجم شامل لأسماء المدن والأمكنة المعروفة بـ "معجم البلدان" وقد نسب إليه شيء من مذاهب الخوارج وقيل بأنه عاد عنه فيما بعد.

أما الثالث فهو ابن سعيد المغربي علي بن موسى (ت 685هـ/ 1286م) صاحب "كتاب الجغرافيا" ويأتي بعده القزويني زكرياء بن محمد (ت 682هـ/ 1283م) وهو الذي جاء بكتاب "آثار البلاد وأخبار العباد" ثم العبدري محمد البلنسي (ت ق 7هـ/ 13م) صاحب الرحلة المغربية. ولا يزال هذا القرن يجود بهؤلاء البلدانيين إذ نجد منهم صاحب كتاب "الإستبصار في عجائب الأمصار" وهو مجهول المؤلف، مجهولة وفاته بالتبع إلا أنه يذكر مع بلدانيي القرن السابع الهجري.

وفي القرن الثامن، يبرز ابن بطوطة محمد بن عبدالله (ت 779هـ/ 1377م) برحلته المشهورة "تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" والمعروفة برحلة ابن بطوطة اختصاراً، ولقد سجل ابن بطوطة فعلا في رحلته التحف والغرائب والعجائب بل حتى المستحيلات في بعض الأحيان، ويعاصره في هذا القرن التجاني أبو محمد عبدالله بن محمد (عاش في ق 8هـ/ 14م) صاحب الرحلة المعروفة "برحلة التجاني"، ولم تكن رحلة طويلة كرحلة ابن بطوطة وإنما اقتصرت على القطرين التونسي والطرابلسي وكان بصحبة أحد ملوك الحفصيين[1].

وتترى الرحلات هكذا إذ في القرن التاسع الهجري/ 15م، نجد القلصادي أبا الحسن علي الأندلسي (ت 891هـ/1485م) يقوم برحلة الحج انطلاقاً من الأندلس فيسجل هذه الرحلة وهي المعروفة بـ "رحلة القلصادي".

وفي القرن العاشر الهجري/ 16م يظهر رحالة من نوع جديد وهو الحسن الوزان ليون الإفريقي ذو الأصول العربية الإسلامية إلا أنه نصراني سجنه القراصنة بعد أن قبضوا عليه، وحظي بخدمة البابا في الفاتيكان فكان من المقربين إليه، كتب كتابه "وصف إفريقيا" وَصَفَ شمال إفريقيا وصفاً دقيقاً خدمة لصاحب نعمته[2].

وأخيراً في القرن الحادي عشر للهجرة/ 17م يبرز ثلاثة رحالة أولهم العياشي أبو سليم عبدالله بن محمد بن بكر (ت 1030هـ/ 1628م) برحلته الموسومة "ماء الموائد"، وهذه الرحلة مهمة جداً لأن صاحبها العياشي اتخذ الطريق الصحراوي في شمال إفريقيا انطلاقاً من تافيلالت بالمغرب الأقصى نحو وارجلان وتفرت فبسكرة متجهاً إلى البقاع المقدسة، فجاءنا بأخبار إباضية تلك المناطق وأشار إشارة عابرة إلى إباضية مزاب.

أما الثاني فهو الإسباني مارمول كاربخال وهو صاحب كتاب "إفريقيا" ويتفق فيه كثيراً مع سلفه الوزان، ونشير هنا إلى أن مثل هذين الكتابين هي الإرهاصات الأولى

---

[1] التجاني: رحلة التجاني، مقدمة المصحح والمعلق. ص: ي، يا.

[2] يذكر محققا كتاب "وصف افريقيا" أن الحسن الوزان إلتحق بتونس أقرب نقطة إسلامية منه، ويبدو أنه عاد إلى دين آبائه الإسلام ومات عليه. أنظر وصف إفريقيا، مقدمة المحققين.

لتطلع أوروبا نحو الشمال الإفريقي.

وثالث الرحالة في هذا القرن هو إبن هطّال أحمد التلمساني صاحب "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري" سجل فيها مشاهداته وملاحظاته لما كان مرافقاً للباي المذكور في رحلته.

فماذا كتب هؤلاء الجغرافيون البلدانيون عن الاباضية؟ وكيف تم اتصالهم بالاباضية مجتمعا ومذهباً؟ وماذا سجل هؤلاء من انطباعات وملاحظات حول الإباضية؟

في البداية أشير إلى أنهم مثلهم مثل المؤرخين وكتاب المقالات، لم يعودوا إلى المصادر الاباضية، ولم يحتكوا بالاباضية احتكاكاً مباشراً إلا نادراً أو لفترة قصيرة جدا، وكان جل اعتمادهم في تسجيلهم للأخبار الخاصة بالاباضية على السماع، إذ كثيراً ما نجد عبارة "قيل لي" أو "قال لي الثقة« كذلك كان أحدهم إذا رجع إلى المصادر التي سبقته يقتبس منها، إقتبس دون تمحيص؛ فالتجاني مثلا بعدما يذكر شناعات للإباضية يقول "... إلى غير ذلك من آرائهم الواهية والأفعال التي حكينا عنهم منها ما شاهدناه وهو ما قصصنا ومنها ما حكاه عنهم الشريف في كتابه المؤلف للُجار"[3] ويقصد بالشريف الإدريسي وبلُجار الملك الصقلي النورماندي روجار Roger ولا بد هنا من إشارة، إلى الخلط الذي وقع فيه المؤرخون وكتاب المقالات ثم الجغرافيون والرحالة والذي يتمثل في اعتبار ونسبة مبادئ النكار للوهبية رغم أن بعضهم يعرف تصنيف الإباضية إلى وهبية ونُكار إلا أن المقصود الذي يريده جميعهم هو الإباضية بنُكارها ووهبيتها دون استثناء. فالإباضية عند الجغرافيين والرحالة من الخوارج المارقين الخارجين عن الدين أصحاب ضلال وبدعة[4]. وهكذا فقد جنى الإباضية "النكار على الإباضية" الوهبية تماما مثلما جنى الأزارقة والنجدات وغلالة الخوارج على الإباضية.

فإذا كان الخوارج الغلاة من جهة والإباضية النكار من جهة أخرى، قد أفسدوا سمعة الإباضية الوهبية، فإن ذلك قد تم بأقلام المؤرخين أولا وكتاب المقالات ثانيا ثم عن طريق الجغرافيين والرحالة ثالثاً إذ كثيرا ما كان هؤلاء الأخيرون يلتقطون النوادر والعجائب والغرائب والأساطير[5] التي تضفي على الكتاب الجغرافي أو الرحلة الطابع العجيب والغريب... وكما أسلفت فإن الجغرافي أو الرحالة لا يتريث في تدوين ما سمعه من ترّهات أو حقائق عن الإباضية أو عن أقلية من الأقليات طالما أنها أقلية لا حول لها ولا قوة، وطالما أن كثيراً من عادات وتقاليد الأقليات يصعب الوصول إلى معرفتها. وهكذا تنسج الأساطير حولها وتتداولها الألسن فتقع الأكذوبات ويصدّق الكاذب أكذوبته،

---

[3] التجاني: الرحلة، ص.123 القزويني: آثار البلاد، مقدمة المحقق ص. 4.

[4] ابن حوقل: صورة، ص. 43 البكري: المغرب، ص.144 الإدريسي: نزهة، ص. 197 يقول الإدريسي عن أهل وارغلان »هم وهبية إباضية نكار خوارج من دين الإسلام« لاحظ: خوارج من دين الإسلام وليس في دين الإسلام. ابن سعيد: الجغرافيا، ص. 145 القلصادي: رحلة، ص. 124. التجاني: رحلة، ص. 149. ابن سعيد المغربي: الجغرافيا، ص. 118. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج، 4، ص. 150.

[5] القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد: مقدمة المحقق ص. 4. يقول المحقق هنا "والذي يؤخذ عليه (على القزويني) أنه نقل أخبارا وحكايات كثيرة عن الرواة الذين كانوا يوردون الخرافات والمستحيلات دون تمحيص، وكان يقبلها على علاتها ويثبتها دون أن يحكم فيها عقله..." ونستنتج من هنا أن من سبق القزويني كان يروي الخرافات والمستحيلات ومن جاء بعده لا نستبعد عنه ذلك والكل تقريباً كان يأخذُ دُون تمحيص ودون أن يحكّم عقله.

ولما تشتهر عادةٌ أو أكذوبةٌ عن قوم من الأقوام يأتي الجغرافي فيسجلها ويساهم بذلك في تشويه الحقائق وتدوين الأباطيل ويصعب بذلك تفنيدها خاصة إذا تداولها الجغرافيون متأخرهم عن متقدمهم...

في هذه الدراسة التي وضعتها لمعرفة موقف الجغرافيين والرحالة من الإباضية نلاحظ موقفين إيجابياً وسلبيّاً، أما الإيجابي فكثيرا ما كان يتعلق بالأعمال والصنائع وأما السلبي فيختص بالعادات والتقاليد والمذهب والمجتمع ... ولنبدأ بالموقف الإيجابي.

الموقف الإيجابي للجغرافيين والرحالة من الإباضية

تحدث الجغرافيون والرحالة عن المناطق الإباضية كعُمان ومدنها وجبل نفوسة وقراه وجزيرة جربة والجنوب التونسي وجبال الأوراس ووارجلان وتيهرت وميزاب في المدة الأخيرة، ومما ذكره كل من ياقوت الحموي والقزويني عن عُمان، حديثا رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إني لأعلم أرضا من أرض العرب يقال لها عمان على شاطئ البحر الحجّة منها أفضل أو خير من حجتين من غيرها."

وعن الحسن البصري: يأتين من كل فج عميق قال: عُمان وعنه عليه الصلاة والسلام: "من تعذر عليه الرزق فعليه بعُمان"[6].

وعمان ذات نخل وزرع وأكثر أهلها خوارج إباضية ليس بها من غير هذا المذهب إلا طارئ غريب وهي مستقلة بأهلها كثيرة الفواكه "وقصبتها صُحار وهي على البحر وبها متاجر البحر وقصد المراكب وهي أعمر مدينة بعُمان وأكثرها مالا... وكان الغالب عليها الشراة إلى أن وقع بينهم وبين طائفة ... حروب ... ففتح عُمان للمعتضد (البويهي) وأقام بها الخطبة له وانحاز الشراة إلى ناحية لهم تعرف بنزوة بها إمأُمهم وبقية مالهم وجماعتهم..."[7] . ويقول ابن حوقل بأن بصحار "من التجار والتجارة ما لا يُحصَى كثرة وهي أعمر مدينة بعُمان ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صُحار.."[8] أما نزوة أو نزوى على اختلاف في رسم كلمتها عند الجغرافيين ففيها: "قوم من العرب كالمعتكفين عليها وهم خوارج إباضية يُعمل فيها صنف من الثياب منمقة بالحرير فائقة لا يعمل في شيء من بلاد العرب مثلها ومآزر من ذلك الصنف يبالغ في أثمانها..."[9] يقول ياقوت الحموي الذي روى هذا الخبر بأنه رأى منها واستحسنها أما ابن بطوطة فيتحدث عن أسواقها الحسنة ومساجدها المعظمة النقية[10].

أما مدينة قلهات فإن ياقوت الحموي يقول عنها "إليها ترفأ أكثر سفن الهند وهي الآن فرضة تلك البلاد وأمثل أعمال عُمان عامرة آهلة"[11] ويلاحظ ابن بطوطة غرابة في

---

[6] ياقوت الحموي: المعجم، ج،4 ص. 150. القزويني: آثار البلاد، ص. 56.
[7] الإصطخري: المسالك ص 25-26. ابن حوقل: صورة الأرض، ص.45،44.
[8] ياقوت: معجم، ج،5 ص. 180.
[9] ابن بطوطة: تحفة النظار، ص 181.
[10] ياقوت: معجم، ج،4 ص. 393.
[11] ابن بطوطة: تحفة، ص. 180.

كلام أهل قلهات ويقول »وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بـ "لا" ويقولون مثلا تأكل لا؟ تمشي لا؟ تفعل كذا لا؟ وهكذا.. ثم إن إبن بطوطة وهو المهتمُّ بمأكولات المشرق والمغرب ذاق منها كثيرا يؤكد قائلا: "وأكلت بهذه المدينة (أي قلهات) سمكا لم آكله في إقليم من الأقاليم وكنت أفضّله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر ويجعلونه على الأرز ويأكلونه..."[12] هذا عن إباضية المشرق أما إباضية المغرب فلنبدأها بجبل نفوسة الذي يقول عنه إبن حوقل بأنه جبل عال من بين قراه ومدنه شروس وجادو وفيهما مياه جارية وكروم وأعناب طيبة وتين غزير وأكثر زروعهم الشعير وإياه يأكلون وبها أسواق حافلة، ويضيف قائلا: "والجبل بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيام لهم، وبه معشر الإباضية والوهبية ثووا بعد عبدالله بن إباض وعبدالله بن وهب الراسبي لأنهما قدِماه ومَاتَا به ولم يدخل أهل هذا الجبل في عهد الإسلام إلى سلطان ولا سكَنه غير الخوارج منذ أول الإسلام ... وقد أقام من خلَفَهم على منهاج سلَفهم به وبما قاربه من مدن الخوارج وهي نفزاوة ولاوجة وبادس وبكرة، يعتقدون آراءهم ويمشون على سنتهم..."[13] ولقد وَهِم ابن حوقل وأخطأ لأن كلا من عبدالله بن إباض وعبدالله بن وهب الراسبي مات بالمشرق. أما البكري فيذكر أن عمرو بن العاص هو الذي افتتح نفوسة وكانوا نصارى ومن نفوسة رجع عمرو بن العاص لما جاءه كتاب عمر بن الخطاب يرده عن فتح بلاد المغرب[14].

وكما استلذ ابن بطوطة سمك قلهات فكذلك استلذ ابن حوقل والإدريسي خبز الشعير النفوسي بحيث "إذا خبز كان أطيب طعما من خبز الحنطة ولشعيرهم لذة، ليس لخبز من أخباز الأرض لأنه ينفرد بلذة ليست في خبز، ولأهله في صنعة الخبز حذق وتمهر فاقوا به كل الناس"[15].

أما مارمول الرحالة الإسباني في العهد التركي فإنه يفيدنا بأخبار من نوع آخر لا يهتم بها غيره من الجغرافيين والرحالة إذ نجده يقول عن سكان جبل نفوسة وجبل بني يفرن "ومن مميزات سكان الجبلين أنهم متمسكون بحريتهم الخاصة متشبثون باستقلالهم الذي يستبسلون في الدفاع عنه، كلما ظهرت لهم في البلاد نزعات إنفصالية وتلك هي طبائعهم اليوم، ولئن رضوا بأن يقدموا الإتاوة للاتراك في عهدنا هذا فلأنهم يسمحون لهم بالاتجار في جربة وغيرها من المواقع الساحلية المنضوية تحت نفوذهم"[16] وبما أن هؤلاء السكان الجبليين من البربر المجبولين على حبّ العمليات الحربية ويتمذهبون بمذهب مغاير للمذهب السائد في البلاد فإن "بعض فقهاء الإسلام يرمونهم بالبدعة[17]

---

[12] ابن حوقل: صورة ص. 92-93. انظر صفحة ،43 الإدريسي: نزهة ص.180 مجهول الاستبصار، ص. 144.

[13] البكري: المغرب، ص. 9-10.

[14] إبن حوقل: صورة ص. 92 الإدريسي: نزهة، ص. 180.

[15] مارمول: الجغرافيا، ج،3 ص. 131-132.

[16] مارمول: الجغرافيا، ج،3 ص. 131.

[17] إبن حوقل: صورة، ص. 94،93. ياقوت الحموي: معجم، ج،5 ص. 296.

"ورغم أن بلاد المغرب تقلبت في مذاهبها"(*) غير أن أهالي صفاقس وجربة والجبلين المذكورين... رفضوا الإنسلاخ عن مذهبهم..."[18] وثبتوا على المذهب الإباضي لم يرضوا عنه بديلا، ويعدد إبن حوقل السكان الإباضية بالجنوب التونسي ويقول "فأما أهل قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشّرى وأهل جبل نفوسة فشراة إما إباضية من أصحاب عبدالله بن اباض أو وهبية من أصحاب عبدالله بن وهب"[19] ويتحدث صاحب الإستبصار عن الجريد ويقول بأنه "لا يجذم أحد ببلاد الجريد إذا دخلها مجذوم توقفت عنه علته..."، وقبل ذلك تحدث عن مدينة درجين الكبيرة التي تصنع فيها الكسى الدرجيني وهو يشبه السجلماسي في ثوبه ولونه، ولكنه دونه في الجودة وبالقرب منه بلد سوف ولا يعرف خلفه عمران ولا حيوان إلا جبال من رمل بيضاء فيها الفنك الذي لا يوجد لجلده نظير في الدنيا..."[20].

أما إذا تحولنا مع الجغرافيين والرحالة إلى جزيرة جربة وهي إباضية نكارية ووهبية "ولأهلها، كما يقول القلصادي، إقتداء بآبائهم فيما ينتحلون من غير المذاهب الأربعة"[21] ورغم أن العياشي والوزان وما رمول يؤكدون على أن أهل جربة كثيرا ما طالبوا بحرية جزيرتهم بالثورة على النصارى أو على الحفصيين[22] إلا أن العبدري يقول: "وصارت جربة اليوم (القرن 7 الهجري) في حكم النصارى، أعطاهم إياها أهلها لشنئان وقع بينهم والعصمة بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله"[23].

وجزيرة جربة في وصفها عند البكري "... فيها بساتين كثيرة وزيتون كثير..."[24] أما ابن سعيد المغربي فيقول بأنها "مشهورة بالزيت والزبيب والرطب والتفاح والأكسيه الملاح..."[25]، أما العبدري فيقول بأن الزيت يجلب من جربة بعد انقطاعه من نفطة وضواحيها وذلك بسبب استيلاء العرب عليها وبها الزيتون والرمان وتفاحها يجلب منها إلى البلاد..."[26] ورأى مارمول بجربة التمر والزيتون والعنب وغير ذلك من الفواكه[27] ويتحدث الإدريسي عن هؤلاء الجربيين النكار والخوارج ويقول: "... وهم مع ذلك كله ضيافون يطعمون الطعام ويندبون إلى طعامعهم ويسالمون الناس في أموالهم وفيهم عدالة بينة لمن نزل بهم"[28] كما أن التجاني يصف أهل زوارة ويقول بأنهم موصوفون بالأمانة فيما يودع عندهم ويضيف "رأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم

(*) من الملاحظ أن مارمول يخلط بين المذاهب الإسلامية وينسب النفوسيين والجربيين وغيرهم للمذهب الحنبلي وهو خطأ ظاهر يقصد ولا شك المذهب الإباضي، فالحنابلة لم يكن لهم وجود ببلاد المغرب أصلاً.

[18] مجهول: الإستبصار، ص. 160 نفسه: ص. 159.

[19] القلصادي: الرحلة، ص. 124.

[20] التجاني: رحلة، ص. 126 الوزان: وصف إفريقيا، ص. 94 مارمول: جغرافيا، ج،3 ص. 103.

[21] العبدري: رحلة، ص. 91.

[22] البكري: المغرب، ص. 119.

[23] إبن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، ص. 145.

[24] العبدري: الرحلة، ص. 91.

[25] مارمول: الجغرافيا، ص. 103.

[26] الإدريسي: نزهة، ص. 207.

[27] التجاني: رحلة، ص. 207.

[28] التجاني: الرحلة، ص. 187.

واصفرت ألوانهم..."[29].

ولندع التجاني يتحدث عن الأمانة دائما ولكن عند أهل غمراسن وهم بالقرب من جبل دمر الذي يأتي غرب جبل نفوسة وهم من قوم البربر "ينتحلون مذهب النكارة من الخوارج[30] يقول التجاني "هم أغير خلق الله على الضيف وأكرمهم له فإذا حل الغريب لديهم واستند إليهم جعلوه من رؤسائهم وانزلوه فوق رؤوسهم وحكموه في أنفسهم ولديهم الأمن الذي لم يسمع بمثله في بقعة من بقاع الأرض وحسبك أنّا أقمنَا معهم فلم يضع لأحد منا شيء مع أني كنت أرى الثياب والأمتعة وأواني الصفر وغير ذلك ملقى بين الأخبية لا يتعرض أحد منهم لشيء من ذلك ومن أحكامهم أن الرجل منهم إذا ظهرت عليه سرقة أو خيانة فإنهم لا يجالسونه ولا يكلمونه إلا فيما لا بد منه ولا يخرجونه من بلدهم إذا كان منهم فإن كان من غيرهم قتلوه. وأخبرني جماعة منهم أن رجلا ضاعت منه دنانير ووجدها رجل آخر منهم فتركها في المسجد الذي في قلعتهم فبقيت في تلك المسجد لا تمدّ إليها يد إلى أن اتفق في بعض الأوقات أن دخل صاحب الدنانير المسجد فوجدها هنالك فأخذها"[31].

أما مدينة وارجلان فإن البكري يذكر بأنها "سبعة حصون للبرابر أكبرها يسمى "أغرم أن يكامن" أي حصن العهود..."[32] أما الإدريسي فيقول:" هي مدينة قبائل مياسير وتجاراً أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى غانة وبلاد ونقارة فيُخرِجون منها التبر ويضربونه في بلادهم بإسم بلدهم..."[33] ويتحدث الوزان ومارمول عن ورغلة أو وركله وينقل المتأخر عن المتقدم مثلما فعل كذلك مع مناطق أخرى كميزاب فالوزان وهو المتقدم يقول عن وركلة بأن بها نخلا كثيرا ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدداً لا يحصى من القرى، الصناع فيها كثيرون وسكانها أغنياء جدّا... القمح واللحم نادران جدا وتؤكل الجمال والنعام، وأغلب الناس سودٌ لا بسبب المناخ ولكن لأن لهم جواري سوداوات يتسرّون بهن فيأتين بأولاد سود، وأهل وركلة كرماء ظرفاء، يستقبلون الغرباء إستقبالا حسنا لأنهم لا يملكون غير ما يأتيهم به هؤلاء كالقمح واللحم المالح والشحم والمنسوجات والأقمشة والأسلحة والسكاكين وكل ما يحتاجون إليه على الجمال. لوركلة أمير يشرّفونه كالملك يعيل نحو ألف فارس من حرسه ويجبى إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال ويؤدي إلى جيرانه الأعراب خراجاً مرتفعا"[34].

ويضيف الوزان بأنه كثيرا ما تقع معارك بين أهل وركله وشعامبة وركلة ويسلب التجار ولكن أهل وركلة يقتلونهم بلا شفقة ولا رحمة[35].

وفي عهد العياشي، في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي لاحظ هذا

---

[29] التجاني: الرحلة، ص. 188.
[30] البكري: المغرب، ص. 182.
[31] الإدريسي: نزهة، ص. 197.
[32] الوزان: وصف، ص. 136-137 وانظر مارمول: الجغرافيا: ج،3 ص. 166-167.
[33] الوزان: نفسه، ص. 154.
[34] العياشي: ماء الموائد، نقلا عن الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص. 88.
[35] العياشي: نفسه، ص. 85.

الرحالة حفر الآبار في وارجلان فروى ذلك معتبراً اياه من الغرائب قائلا "ومن غرائب هذه البلدة إستخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار فيحفرون بيراً نحواً من خمسين قامة ثم يصِلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فإذا نقبوه فاض منه الماء فيضاناً قويّاً ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البير ويصير عيناً فإن لم يتدارك الحافر بالجذب أغرقه الماء..."[36].

كما أن العياشي أعجب أيما اعجاب بمسجد الإباضية الذي يقول عنه إنه بجانب دار الإمام وهو "... متقن الصنعة مجصص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي (كذا) جوانبه معدة للوضوء وقضاء الحاجة، ومكان معد لتسخين الماء فأعجبني غاية"[37].

وعندما نصل إلى مزاب نلاحظ كما أسلفنا عدم تطرق الجغرافيين والرحالة العرب لهذه المنطقة ولم يلجوا الصحراء للوصول إليها أما الوزان ومارمول في القرنين 16م و17م يتحدثان عن منطقة ميزاب والميزابيين ويقولان: مزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا أي شمال افريقيا أو المغرب الإسلامي، "على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكورارين وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط تشتمل على ستة قصور وعدة قرى سكانها أغنياء وهي أيضا رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أرض السودان غير أن أهل مزاب يؤدون الإتاوة إلى الأعراب ويخضعون لهم"[38].

أما مارمول فإنه يضيف قائلا "اشتهر أهل المزاب بما حباهم به الله من ذكاء في التجارة ومهارة في المعاملات مع أهل السودان ذلك ما أهلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار مملكة بجاية والجزائر من جهة وتجار السودان من جهة أخرى وتتبوأ المزاب مكانة هامة إذ أن موقعها جعل منها ممرّاً للقوافل التجارية في الإتجاهين، فيقف بها أصحاب البضائع ويؤدون المكوس الجمركية عما تحمله جمالهم فتضاف هذه المداخيل إلى موارد الأهالي وتزيد في ثرائهم..."[39].

إن الإتاوة التي تحدّث عنها الوزان قبل قليل والتي تدفع للأعراب ثم أصبحت بعد ذلك في العهد التركي تدفع للأتراك، إستغل الميزابيون قدوم محمد الكبير باي الغرب في العهد التركي إلى الأغواط سنة 1199هـ/ 1785م وطلبوا منه مطالب، نترك إبن هطال التلمساني كاتب رحلة الباي إلى الجنوب الجزائري يتحدث عنها قائلا: لما كان باي وهران مع بني الأغواط يستلم منهم ما عليهم من ضرائب وإتاوات "إذا بخيل من بني ميزاب قد لحقوا إلى "المحلة" وتركوا عسكرهم نازلا على "بني الأغواط" طامعين أن ينقض سيدنا عهده مع بني الأغواط ويخرجهم من بلادهم ويسلمها لبني ميزاب فلم يلتفت لكلامهم ولم يسمع لمقالهم فلما يئسوا منه وتحققوا أنه غير منقض عهد بني الأغواط سألوا منه أن يجعل بينهم وبينهم صلحاً ويأمرهم أن يطلقوا من كان محبوسا عندهم من بني ميزاب فكتب لبني الأغواط كتابا: "أن أطلقوا بني ميزاب الذين حبستم ولا نسرح

---

[36] الوزان: وصف، ص. 134-135.

[37] مارمول: الجغرافيا، ج،3 ص. 164.

[38] إبن هطال أحمد التلمساني: محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، ص. 75 والجدير بالذكر أن هذه الرحلة لباي الغرب إلى صحراء الجزائر كانت سنة 1199هـ/1785م.

[39] ابن الفقيه: مختصر البلدان، ص. 92.

أحداً من أولادكم إلا إذا أتاني كتاب من قبل بني ميزاب وأنكم سرحتم أولادهم، وأما الصلح فلا أحملكم عليه فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسّلام"[40] وهكذا نلاحظ كيف أن ولاة أمور المسلمين في العهد التركي لم يكن يهمهم إلا ما يجمعونه من هذه القبيلة أو تلك من غرامات وإتاوات أما أن يقيموا الصلح بين القبائل المتنازعة فذلك بعيد عنهم بل لا يخدم مصالحهم في الجزائر لان اتفاق القبائل الجزائرية يجر حتما إلى التمرد على وجودهم وهم الغرباء في البلاد وعملوا بل كرّسوا غرابتهم في المجتمع بأعمالهم وسلوكهم: فالأتراك في الجزائر مثلهم مثل المستعمر الفرنسي في سياسة فرّق تسد ولا يستبعد عنهم أنهم هم الذين يحرضون بني الأغواط على اختلاس أموال ورجال بني ميزاب عند عودة هؤلاء من الشمال بعد عناء الغربة ومشاق العمل المضني من أجل لقمة العيش الحلال فيأتي في الأخير قطاع الطرق من بني الأغواط وغيرهم ويستولون على القافلة ومحتوياتها، وكم من تاجر أو أجير أوصل الليل بالنهار في غربته بالشمال لأعوام طويلة وعندما يعود إلى أهله بما جمعه حلالا بعرق جبينه يجد نفسه في لحظة من اللحظات صفر اليدين كأن لم يعمل ولم يعان في تلك السنين الطويلة... فأي فائدة من الجبايات يجنيها المُجتباة منه من الجابي؟ إنما تستخلص الضرائب والجبايات عندما يستخلصها السلطان لضمان أمن حرية التنقل وضمان أمن الأنفس والأموال والتجارات فهل وفر الأتراك للأهالي عموما وللميزابيين خصوصاً هذا الحق بعد أن التزم الجزائريون والميزابيون منهم بالواجبات تجاههم؟

إن النص الذي ذكره إبن هطال غني واضح لا يحتاج إلى تفسير فهو يؤكد أن الباي لا يهمه الصلح بين القبيلتين وإنما يرده إلى مصلحة كل قبيلة على حدة إن شاءت دخلت في الصّلح وإن شاءت دخلت في حرب.

هذا ما أمكن جمعه من الإيجابيات التي ذكرها الجغرافيون والرحالة للإباضية لم نتدخل فيها كثيرا لأنها واضحة ولا تحتاج إلى تعليل ثم إنه لم نهتم بها كثيراً، وإنما أوردناها حتى لا نغمط جزءا من حق الجغرافيين والرحالة وربما اعتقد -خطأً- بعض من يعود إلى دراستنا هذه فيظن أن هؤلاء لم يكتبوا عن الإباضية إلا سلْبيات وترّهات، ثم إننا ذكرناها حتى تساعدنا فيما بعد على معرفة وإدراك السلبيات وعقد مقارنة بينها فالسلبيات كثيرة جدا بحيث لا تبقي ولا تذر شيئا من تلك الحسنات أو الإيجابيات القليلة التي ذكروها وربما رغماً عنهم.

المواقف السلبية للجغرافيين والرحالة من الإباضية

عندما نتحدث عن المواقف السلبية للجغرافيين والرحالة من الإباضية لا نعني بذلك حكماً عليهم بقدر ما نريد أن نبرز الجوانب السلبية مثلما أبرزنا، من قبل، الجوانب الإيجابية للإباضية عند هؤلاء الجغرافيين والرحالة.

ففي البداية، يتحدث ابن الفقيه عن عُمان ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي قال لابن القرية: أخبرني عن مكران وخراسان وعن اليمن ثم عن عُمان فقال عن عُمان:

[40] ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج،4 ص. 150 القزويني: آثار، ص. 56.

"حرّها شديد وصيدها عتيد وأهلها بهائم ليس بها رائم"[41]. فهذه هي عُمان التي ذكرها الجغرافيون سابقاً وقالوا بأن الحسن البصري عندما يفسر قوله تعالى: "يأتين من كل فج عميق" يقول بأن الله سبحانه وتعالى يقصد بذلك عُمان وهي التي قال عنها الرسول (صلى الله عليه وسلم) "... الحجة منها أفضل أو أخير من حجتين من غيرها"[42]. فأي الجغرافيين والرحالة نصدق؟

وفي صدد حديثه عن أهل عُمان يقول القزويني هم "الخوارج الإباضية ... وهم أتباع عبدالله بن أباض الذي ظهر في زمن مروان بن محمد آخر بني أمية وقد قُتل وكُفي شره"[43] ومن قال بأن ابن إباض قُتل؟!

أما ابن بطوطة الرحالة المغربي فيقول متحدثاً عن أهل عُمان "وعادة أهلها أنهم يأكلون في صحون المساجد يأتي كل إنسان بما عنده ويجتمعون للأكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم أبداً وهم إباضية المذهب ... ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا إنكار لذلك"[44] ثم يتحدث عن سلطان عُمان العربي الأصل من قبيلة الأزد ويقول بأنه كريم وله أخلاق حسنة: "ويؤكل على مائدته لحمُ الحمار الإنسي، ويُباع بالسوق لأنهم قائلون بتحليله، ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره"[45].

ويبدو أن ابن بطوطة لم يخفَ عنه هذا أو ربما أظهره له هذا السلطان أو اكتشفه بوسائله الخاصة، ولست أدري ما هذا التناقض في القول؟! فمن جهة يباع هذا اللحم في الأسواق ومن جهة أخرى أهل عُمان يخفون أكله، المهم أن الإباضية يستحلّون لحم الحمير وهذا هو المقصود من هذه الرواية ثم كأن الإباضية وحدهم يأكلون هذا اللحم دون غيرهم من المسلمين فالمسألة خلافية بدون شك...!

ثم يروي ابن بطوطة رواية عن فساد النساء العُمانيات وليت الأمر توقف عند هذا الحد من التعميم، ولكن هناك إشارة إلى ممارسة البغاء الرسمي بموافقة السلطان الكريم ذي الأخلاق الحسنة إذ يقول "كنت يوماً عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان فأتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه، فوقفت بين يديه وقالت له: يا أبا محمد، طغى الشيطان في رأسي فقال لها: إذهبي واطردي الشيطان فقالت له: لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد. فقال لها: إذهبي، فافعلي ما شئتِ! فذكر لي، لما انصرفت عنه، أن هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد، ولا يقدر أبوها ولا ذوو قرابتها أن يغيروا عليها وإن قتلوها قُتلوا بها، لأنها في جوار السلطان"[46].

ثم نقفز من عُمان إلى بلاد المغرب لنجد الرحالة ابن جبير يقول: "وليتحقق المتحقق

---

[41] القزويني: آثار، ص. 56-57. في الحقيقة لم يُقتل ابن إباض ولم يقُل أحد بهذا كما أنه ظهر قبل مروان بن محمد وذلك في عهد عبدالملك بن مروان في النصف الثاني من القرن الأول الهجري بل عاصر حتى معاوية الأول (41-60هـ).

[42] ابن بطوطة: رحلة، ص. 181.

[43] نفسه، ص. 181.

[44] ابن بطوطة: رحلة، ص. 181.

[45] ابن جبير: رحلة، ص. 55-56.

[46] المقدسي: أحسن التقاسيم، ص. 236.

ويعتقد الصحيح الإعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لا بُنيّات لها. وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها. كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين أعزهم الله فهم آخر أئمة العدل في الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم... ويركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثلها، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ... لو كان له أعوان على الحق"[47].

ويضيف المقدسي: "وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحمه الله إنما هو أبو حنيفة ومالك رحمهما الله وكنت يوماً أذاكر بعضَهم في مسألة فذكرت قول الشافعي رحمه الله فقال أسكت من هو الشافعي؟ إنما كان بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب أفنتركهما ونشتغل بالساقية؟ ورأيت أصحاب مالك رحمه الله يبغضون الشافعي(*) قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل تعصباً منهم"[48].

أهي الصدفة أم التورع من الحديث في أعراض الناس دون تأكيد وتثبت جعل هذين الرجلين يتفقان على أنه لا إسلام بحق إلا ببلاد المغرب وأنه لا تعصب ببلاد المغرب مثل التعصب الموجود ببلاد المشرق، ثم إن المقدسي وابن جبير كليهِمَا لم يتناولا الإباضية بسوء إطلاقاً مشرقها أو مغربها، فهل هذا يعني أنهما لم يشاهدا ما شاهده الجغرافيون والرحالة من قبلهما ومن بعدهما ولم يسمعا مثلما سمع غيرهما من قبلهما ومن بعدهما؟ يبدو لي أن الورع والتقى والوقوف عند حدود الله، كل ذلك كان الرادع والراد إلى تنزيه اللسان عن البهتان والترّهات وتنزيه القلم والقرْطاس عمّا شابه ذلك...

ولنعد الآن إلى الجغرافيين والرحالة الذين اعتادوا التقاط عورات المسلمين وأعراضهم أو على الأقل، حتى لا نظلم أحداً منهم، نقول الذين آلوا على أنفسهم أن يقولوا كل شيء دون تدقيق أو بيان، ودون سماع أو شهادة مباشرة أو احتكاك طويل مباشر.

فاليعقوبي يتحدث عن موضع توْرْغة ويقول "كلها اباضية على أنهم لا يفقهون ولا لهم دين"[49] أما الإدريسي فيقول عن أهل جبل نفوسة "كلهم إسلام لكنهم خوارج نكار على مذهب ابن منبه اليماني"[50] ومن هو ابن منبه اليماني؟ لا ندري ولا نعلم من أين اقتبس الإدريسي هذا الإسم. ثم لنستمع إلى صاحب الإستبصار في عجائب الأمصار يتحدث عن نفوسة إذ يقول "وفي هذا الجبل أمم كثيرة على مذاهب شتى وأكثرهم إباضية وليس لهم أمير يرجعون إلى أمره وإنما لهم شيوخ وفقهاء في مذاهبهم... ولهم

---

[47] اليعقوبي: البلدان، ص. 344.

(*) إذا كانت المالكية تبغض الشافعي فماذا تقول عن ابن إباض والإباضي؟!

[48] الإدريسي: نزهة، ص. 200.

[49] الإستبصار، ص. 144-145.

[50] الإستبصار، ص. 145.

رُخَصٌ كثير (كذا) في مذاهبهم"[51].

وهكذا نلاحظ أن أهل جبال نفوسة تارة إباضية ولكن لا يفقهون ولا لهم دين وتارة خوارج نكار على مذهب ابن منبه اليماني وتارة أخرى على مذاهب مختلفة شتى وأكثرهم إباضية ولكنَّ لهم رخصاً كثيرة في مذاهبهم.

ولنبق دائما مع صاحب الإستبصار ليروي لنا قصة أخبره بها الثقة على حد قوله إذ يقول: "أخبرني الثقة قال: رأيت رجلا دخل بلادهم فرأى إنسانا قد أراد التطهر، فنزل على ماء ونزع ثيابه وجعل يشبر كأنه يغتسل، وكأنه يتوضأ، وكأنه يريق على رأسه وعلى جسده الماء. فقال له الرجل ما هذا؟ فسكت عنه حتى فرغ فأخبره الرجل الغريب وحمله إلى حاكم البلد، وقال له رأيت هذا يفعل كيت وكيت فقال له الحاكم: من أين أنت؟ فقال من المغرب، فقال والله لولا أنك غريب ببلدنا لأدبتك وما يدريك لعل له عُذراً قال الله تعالى "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[52] ثم يعلق صاحب الإستبصار على هذه القصة ويقول "وهذا أفضل مذاهبهم فإن فيهم من لا يرى الإغتسال بالماء جملة، وإذا كان على أحدهم غُسْل يتمرغ في التراب ويتيمم مكان الوضوء، وببلاد إفريقية من هذا المذهب كثير، والزنا الحرام بجبل نفوسة في مذهبهم: ما منهم رجل غني إلا وله وصائف كثيرة يُلْبِسْهُن فاخر الثياب ويحلّيهن بالحلي ويبرزهن على الطريق للفواحش ولهم ديار مُعَدَّة لذلك وهذا عندهم معروف لا ينكر..."[53] وعلى فرض وجود هذه الظاهرة فلِمَ هذا التعميم؟ ثم إننا لو صدقنا الجغرافيين والرحالة لقلنا إن معشر الإباضية في المشرق والمغرب زناة عصاة ونساؤهم فاسدات فاسقات ومجتمعهم منحرف فاسد.

فكم أساء هؤلاء ليس للإباضية فقط وإنما للإسلام عموماً، وكم عملوا على نشر الرذيلة بالكذب والبهتان...!

وإذا أردنا أن نعرف سبب هذا التحامل على النفوسيين خاصة وعلى الإباضية عامة نترك الوزان وهو الغريب عن الديار يقول عن نفوسة وسكان هذه الجبال بأنهم شجعان أبطال إلا أن المسلمين المتمذهبين بمذهب خلفاء القيروان يعتبرونهم زنادقة... يذهبون إلى ضواحي تونس وغيرها من المدن حيث يزاولون حرفا بسيطة لكسب معاشهم"[54].

فالنفوسيون لا يتمذهبون بمذهب أمراء القيروان لذلك أُعتُبِروا زنادقة والزنديق حلال دمه وماله وعرضه...

ولنتقدم قليلا مغرباً من جبل نفوسة إلى قريتي زوارة وزواغة لنجد العبدري في رحلته يقول "قريتي زوارة وزواغة ذوي الأنفس الخبيثة والقلوب الزواغة (أصحاب) معتقدات شنيعة وأعمال كسراب بقيعة ومذاهب سوء رديئة وضمائر شرّ عمَّر منهم كل طويلة. إن استنام إليهم حاج لم يوقظه إلا بردُ مَاءِ التقديس ودوي النواقيس أو استأمن إليهم حاج لم يَرُعْهُ إلا تلفيق المعاذير عن إساءة رعي الخنازير لأنهم يبيعونها من النصارى بأبخس الثمن ويعتقدون كل ذلك حقا تَنْتَفي عنه الظنن، قطع الله دابرهم وخضّد

---

[51] الإستبصار، ص. 145-146.
[52] الوزان: وصف، ص. 105.
[53] العبدري: رحلة، ص. 69.
[54] التجاني: رحلة، ص. 207.

أصاغرهم وأكابرهم، ولا أَخْلاَهُم من قارعةٍ تجتاحهم قرعاً وتسحتهم أصْلاً وفرعاً"[55].

إن العبدري قد غالى كثيراً في كتابه ولا شك، وصب جام غضبه على الإباضية مذهباً ومجتمعات، لا لشيء إلا تعصباً مذهبيّاً، مصدره الجهل بحقيقة الأمور.

ويأتي التجاني بعد العبدري في القرن الثامن الهجري ليقول بأن أهل زوارة "قوم من الخوارج غلاة في مذهبهم موصوفون بتصميم في دينهم وأمانة فيما يودع عندهم مكفرين بمواقعة الذنوب ورأيت منهم أقواما قد نَحُلَتْ من العبادة أبدانهم واصفرت ألوانُهم بانين في ذلك على هذا الأصل الفاسد من تكفير العصاة"[56].

ويضيف التجاني بأنه رأى شيخا زواريا يُعرف بعبدالرحيم الزواري "... جميعهم يعظمه ويقدمه رئاسةً وسناً وصلاحاً بِزَعْمِهِم إجتمعتُ به فرأيت شيخا مجتهداً في العبادة حَسَنَ السَّمْتِ إلا أنه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله وخسر حاله ومآله"[57] وناقش التجاني مع هذا الشيخ الزواري قضية المسح على الخفين فقال "وانجرّ الكلام معه من التحدث في أصل المعتقد إلى التحدث في مسألة المسح على الخفين في الطَّهارة فشنَّع بها على مثبتها كثيراً وفاقاً لمذهب الخوارج فذكرت له بعض الأحاديث فردها بالجملة وقال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها قال: وقد نص لنا سيدنا أبو زيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار والثورة على الفاطميين الشيعة من سنة 333هـ حتى سنة 336هـ) على طرح ما كان من الأحاديث يناقض أصلا من أصولنا فلعنْتُ النص ومن نصه وأبعدت عني لَفَتَاتٍ (كذا) لم يَصُن لسانه عنها شخصه (كذا)... وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول وقد نصّوا على تفسيق من قال به..."[58] وهكذا بمسألة خلافية بين المذاهب كمسألة المسح على الخفين يفسق المسلم أخاه المسلم وليت الأمر توقف عند ذلك الحشد ولكن لا فَهُناك تبعات تلاحق الفاسق ومذهب الفاسق...!

ثم لنركب البحر مع الجغرافيين والرحالة لنصل جزيرة جربة فنجد البكري ومِنْ بَعدِه ياقوت الحموي يقولان "وأهلها مفسدون في البر والبحر وهم خوارج"[59] أما الإدريسي الذي كان يكتُبُ لرُجار Roger النورماندي بصقلية، كما أسلفنا، هذا الأخير الذي كان يطمع دائما في الحصول على جزيرة جربة يقول عنها "هي جزيرة عامرة بقبائل من البربر، والسمرة تغلب ألوان أهلها والشر والنفاق موجود في جبلّتهم، وكلامهم بالبربرية خاصُّهم وعامُّهم، وهم أهل فتنة وخروج عن الطاعة. وافتتحها الملك المعظم رجار Roger بأسطول بعثه إليها وذلك في آخر سنة تسع وعشرين وخمسمائة (529هـ) ثم نافقوا وخرجوا عن طاعة الملك المعظم رجار فغزاهم في هذه السنة بأسطول فاستفتحها ثانية ورفع جميع سبيها إلى المدينة ... ويتصل بهذه الجزيرة... جزيرة زيزوا وهي صغيرة جدّا ... عامرة بأهلها وهم قوم نكار خوارج في الإسلام مذهبهم الوهبية وكذلك جميع الحصون والقصور التي تلي هاتين الجزيرتين يتمذهبون

---

[55] التجاني: رحلة، ص. 208.
[56] التجاني: نفسه، ص. 208 وما بعدها.
[57] البكري: المغرب، ص. 19 ياقوت الحموي: معجم، ج،2 ص. 119.
[58] الإدريسي: نزهة، ص. 206-207.
[59] العبدري: الرحلة. ص. 91.

بمثل ذلك... [60].

نلاحظ الخلط، في القوم النكار الخوارج الوهبيين فضلا عن التعميم في قوله هم أهل فِتْنة وخروج عن الطاعة، والشرُّ والنفاق موجود في جبلَّتهم...

كما نلاحظ هنا أن الجربيين دافعوا عن جزيرتهم وجاهدوا ضد النورمانديين إلا أنهم سقطوا في النهاية تحت غزوهم وتعرضوا للسبي بسبب جهادهم، ومع كل هذا نجد العبدري يقول عنهـم "وأهلها (أي جربــة) أصحاب مذاهب رديئة وأهـواء مضلة مثل زوارة وزواغة دمرهـم الله جميعـا وقد صارت جربة اليوم في حكم النصارى أعطاهم إياها أهلها لشنئان وقع بينهـم"[61] فأي الجغرافيين نصدق؟ الإدريسي الموالي للنصارى أم العبدري الموالي للحفصيين الطامعين في جربة ؟(*)

ثم لنستمع إلى البكري يتحدث عن جزيرة زيزوا التي يقول بأنها رازوا عامرة آهلة كثيرا ما يمتنع أهلها على السلاطين، وممّا يذكرون في معايبها أن أكثر دورهم لا مذاهب فيها (مراحض) وإنما يتبرزون في الأفْنِية ولا يكاد أحد منهم يفرغ من قضاء حاجته إلا وقد وقف عليه من يبتدر أخذ ما يكون منه لتدمين البساتين وربما اجتمع على ذلك النفر فيتشاحُّون فيه فيخص به من أراد منهم وكذلك نساؤها لا يرين في ذلك عليهن حرجاً إذا سترت إحداهن وجهها ولم يُعلَم من هي..."[62].

ونجد ظاهرة تدمين الأرض بزبل الإنسان عند أهل توزر والجريد في الجنوب التونسي إذ يقول عنهم صاحب الإستبصار "أهل توزر يبيعون زبل مراحضهم وهم يعيرون بذلك لأنهم لا يدخلون المراحض بالماء لئلا يفسد الزبل، فإذا دخل أحدهم المرحاض مشى إلى بعض السواقين التي تَشُقُّ مدينتهم أو الوادي فاغتسل، ويمشي عندهم دلاّل المرحاض بالزبل في الإناء، فإذا كان جافّا حُرص عليه، وإذا كان رطبا زُهد فيه، ويضعون في جنانهم مراحض على الطرق العامرة لمن كان مضطرّا أو غريبا ليس من أهلها.

أما البلدي فلو أمسك ذلك يوما أو يومين ما رماه إلا في مرحاضه، وإنما ذلك لتدمين أرضهم لأنها في غاية الجفوف لقربها من الصحراء وتتفاضل بلاد الجريد في رطوبة الأرض ودهنيتها وتوزر أيبسها"[63].

أما بلاد الجريد فاشتهر عنهم بأنهم "يأكلون الكلاب ويستطيبونها وهم يسمنونها ويعلفونها بالتمر، فيزعُمون أن لحمها يأتي ألذ اللحوم"[64].

ويأتي الرحالة التجاني في القرن الثامن الهجري ليعيد نفس الكلام إذ يقول عن أهل الجريد:

---

[60] البكري: المغرب، ص. 18.

[61] الإسبتصار، ص. 156.

(*) إن جهاد ودفاع الإباضية عن جربة عبر العصور الوسطى هو الذي تركها قطعة إسلامية إلى اليوم بيد المسلمين وإلا لكانت مثل سبتة ومليلة، بيد الإيطاليين.

[62] نفسه، ص. 160.

[63] التجاني: رحلة، ص. 160.

[64] التجاني: رحلة، ص.ص. 128 –261.

إشتهر عنهم ما اشتهر من بيع فضلاتهم وهم يعيّرون بذلك كما يعيّر أهل قابس ويعير هؤلاء أيضا بأكل لحوم الكلاب ولم أر منهم إلا مقرا بأكلها مستطيباً للحمها"[65].

إن عملية تسميد الأرض وتدمينها، على حد قول الجغرافيين، بفضلات الإنسان وزبله شيء معروف منذ القدم، لدى الفلاحين في الصحراء وهو أمر إقتصادي محض إذ يساهم ذلك في رفع الإنتاج الزراعي بالنسبة للأرض الجافة الفقيرة إلى المواد العضوية، فأي غرابة في هذا الأمر الذي تعرفه الكثير من الأمم؟ ولماذا ينسب لهؤلاء الإباضية فقط وبهذا التشهير السلبي؟ ثم لنتصور هذا المنظر الغريب المضحك الذي جاء به البكري وصاحب الإستبصار والتجاني عن الإباضية تشنيعا وتشويهاً، نقلاً عن بعضهم البعض، إذ يأتي الرجل أو المرأة لقضاء حاجته أو حاجتها فيجلس لِذلك وفجأة يجد إلى جانبه أحداً أو مجموعة واقفين لالتقاط بل لابتدار ما يكون منه ليستعمله سماداً لأرضه. ويؤكد البكري أن النساء الإباضيات لا يرين في ذلك حرجاً عليهن... بل إنه يقول إن الجماعة تتصارع وتتشاحن من أجل اكتساب ذلك فيحكم صاحبه إن احتدم الخلاف لمن يهبه..!؟

هذا ما قاله البكري أما صاحب الإستبصار فيروي أن البلدي ويقصد به الريفي إذا كان بعيدا عن بستانه أو مرحاضه وشعر بالحاجة إلى قضاء الحاجة فإنه يمسك ذلك يوما أو يومين حتى يرميه في مرحاضه...!

إن استعمال زبل الإنسان أوالحيوان سماداً للأرض ليس خاصّاً بالاباضية ولم يبتكره الإباضية بل تعرفه شعوب كثيرة على وجه الأرض، فلماذا يخص به الإباضية فقط؟ ولماذا يُعابون أو يُعَيَّرون عليه؟

لقد أصبح إحياء الأرض الموات عند هؤلاء البُلدانيين شنيعة من الشنائع وعملاً وضيعاً يُعَاب عليه أصحابه، ولا يصدر هذا إلا عن جهل بحقائق الأشياء، وقديماً قيل "الإنسان عدو ما جهل«.

ونبقى مع هؤلاء البلدانيين في جربة لنجد التجاني يقول "مذهب جربة فاسد وأهلها كفار ورئيساها وهما شيخ الوهبية وشيخ النكار من فراعن الجزيرة"[66] ويقتبس عن الإدريسي شناعات وغرائب عن أهل الجزيرتين جربة وريزوا من النكار والخوارج في الإسلام مذهبهم الوهبية على حد تعبير الإدريسي الذي يواصل "وذلك أنهم لا يماسح ثوبُ أحد منهم ثوب رجل غريب ولا يمسه بيده ولا يؤاكله ولا يأكل له في آنية إلا أن يكون آنية محفوظة ولا يقْربُها أحد سواه، ورجالهم ونساؤهم يتطهرون في كل يوم عند الصباح ويتوضؤون ثم يتيممون لكل صلاة، وإن استقى عابر سبيل شيئا من مياه آبارهم وعاينوه طردوه واستخرجوا ذلك الماء عن البئر، وثياب الجنب لا يقربها الطاهر وثياب الطاهر لا يقربها الجنب"[67] ثم كأن الإدريسي يريد أن يستدرك فيذكر منقبة إذ يقول "وهم مع ذلك كله ضيّافون يطعمون الطعام ويَنْدبون إلى طعامعهم ويسالمون الناس في

[65] الإدريسي: نزهة، ص. 207.
[66] الإدريسي: نزهة، ص. 207.
[67] التجاني: ص. 123.

أموالهم وفيهم عدالة بيّنة لمن نزل بهم"[68] فماذا نصدق من كلام الإدريسي أوله أم آخره؟!.

ومع هذا التناقض ينقل التجاني النص الأول بأكمله ولا يشير ولو إشارة عابرة إلى النص الثاني الذي فيه المدح لأهل جربة وريزوا وإنما يعقب على كلام الإدريسي قائلا "وقد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أجنب غسل ثوبه الذي أجنب فيه يرفعه بعصا أو بمحجن ثم يلقيه في البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده، ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم رجالا ونساء أجنبوا أو لم يجنبوا ويتوضؤون ثم يتيممون وقد شاهدت هذا منهم كثيرا ويشترطون في وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية والأفعال التي حكينا عنهم منها ما شهدناه وهو ما قصصنا ومنها ما حكاه عنهم الشريف في كتابه المؤلف للجار"[69].

ويمكن أن نقول معقبين على مشاهدات التجاني بأنها مشاهدات لا تخلو من خلفيات وتشويه وتشنيع لأن الأصل عنده أن الإباضية مذهب فاسد والإباضيةَ قوم كفار ورؤساءهم فراعن كما مَرَّ بنا[70].

ونغادر جربة إلى مواطن أخرى للإباضية بالقرب من القيروان قرية تسمى الزارات تبعد عنها بأميال يسيرة يقول التجاني في القرن الثامن الهجري "من هذه القرية كان الإبتداء بسلوك منازل البربر المستمسكين بمذهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم، وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي بين قابس وطرابلس وخصوصا أهل الساحل منهم فهم بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يمر بهم من المسلمين للروم فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الإنفراد في قراهم ويتجنبون إيواءهم وقرَاهم وهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد في إفريقية فإنه لما أظفر الله به وأراح منه البلاد والعباد تفرقت أتباعه في الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع وسكنت طائفة أخرى بجبال بجاية وقسنطينة وما والاها إلى بونه ومالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة ونفزاوة وما والاها من البلاد"[71].

وهكذا نلاحظ الإمتداد الكبير للقبائل البربرية المستمسكة بالمذهب الإباضي في المغربين الأدنى والأوسط ولكن الإباضية لا يستحلون دماء المسلمين إن استحلها الخوارج من الأزارقة والنجدات. وربما شوّه الإباضيّة كما قلت سلفاً النكار: أتباع يزيد بن فندين في العهد الرستمي ثم أتباع أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار وصاحب الثورة العارمة على الفاطميين العبيديين ببلاد المغرب، ولما كان مصير هذه الثورة الفشل فإن اللعنات كلها لحقت أبا يزيد وأتباعه في كل مكان بل لاحقت وأصابت حتى الإباضية الوهبية التي كانت ضد أبي يزيد وضد ثورته ولم تقف معه ولم تنصره وقوف ونصرة علماء وعامة المالكية الذين أدركوا خطأهم فيما بعد.

---

[68] التجاني: رحلة، ص.ص. 128 –261.
[69] التجاني: رحلة، ص.ص. 119 –120.
[70] إبن حوقل: صورة، ص 74.
[71] نفس: ص. 94.

لقد شوّه النكارُ الإباضيةَ أيما تشويه إذ نادراً ما نجد جغرافيا لا يتحدث عن أبي يزيد وثورته ويتبعه باللعنات فهذا ابن حوقل الشيعي يقول بأن أبا يزيد مخلد بن كيداد خرج بالمغرب "في أحزاب الكفر والنفاق والإباضية والنكارية المراق"[72] ثم يضيف هو "أبو يزيد مخلد بن كيداد الإباضي الخارج على القائم محمد بن عبيد الله عليه السلام من أهل شماطة ومن فراعنتهم"[73].

وإذا جئنا جَبَلَ الأوراس وضواحيه نستمع إلى إبن سعيد المغربي يقول: "جبل أوراس المشهور الذي كانت فيه الكاهنه، وسكانُه أهل دعارة وعصيان لا يدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل ولما عندهم من الحيل والرجّالة والأسلحة، وهو كثير الخيرات وأهله خوارج ومعظمهم من هوارة..."[74].

نلاحظ هنا ذلك الربط بين الكاهنة التي حاربت المسلمين وكلمة "دعارة" و"خوارج" لا يدخلون في طاعة سلطان، ومثل إبن سعيد نجد البكري في حديثه عن تهوذا التي بالقرب من جبل أوراس سكانها العرب وقوم من قريش وإن كانت بينهم وبين من يجاورهم حرب "وأعداؤهم هوارة ومكناسة إباضية وهم بجوفَيْها وأهْل تهوذا على مذهب أهل العراق... وفي تهوذا قتل عقبة بن نافع على يد كسيلة بن لمزم"[75] ثم يتحدث عن جبل أوراس الذي فيه قلاع كثيرة يسكنها قبائل هوارة ومكناسة وهم على رأي الخوارج الإباضية ومن هذا الجبل قام أبو يزيد مخلد بن كيداد النفزي الزناتي... وفي هذا الجبل كان مستقرُّ الكاهنة..."[76] ثم يضيف قائلا عن باغاية: "يسكن فَحْصَ هذه المدينة قبائل مزاتة وضريسة وكلهم إباضية وهم يظعنون في زمن الشتاء إلى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج خوفا على نتاج إبلهم وإلى مدينة باغاية لي (كذا) البربر والروم وبها تحصنوا من عقبة بن نافع القرشي وأهل باغاية كلهم اليوم على رأي الإباضية[77].

وهكذا نلاحظ أن أغلب الجغرافيين والرحالة إذا اضطروا إلى وصف شيء عادي أو ذكر محمدة للإباضية إلا وأتبعوها بمفسدة أو شنيعة تنسي المحمدة التي ذكرها وتبقي الذهن متصلا ومتعلقا بالمفسدة.

وفي هذا الإتجاه نلاحظ التجاني عند حديثه عن أهل غمراسن الذين قال عنهم بأنهم أغير خلق الله على الضيف وأكرمهم له وأنهم أصحاب أمانة وصدق وغير ذلك من الصفات الخلقية الحميـدة [78].

إلا أن التجاني لا يترك هذه الصفات تعلق بأذهان القارئين لرحلته، ولهذا نجده قبل ذلك وبعده يقول: "... وليس لأهل غمراسن ولا لأكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الإسلام إلا الإسم فقط ولا تجد منهم من يعرف للصلاة إسما فضلا عن أن يقيموا لها

---

[72] إبن سعيد: الجغرافيا، ص. 145.
[73] البكري: المغرب، ص.ص. 72، 73.
[74] نفسه: ص. 144.
[75] نفسه: ص.ص. 144-145.
[76] التجاني: رحلة، ص. 188.
[77] التجاني: رحلة، ص. 187.
[78] نفسه: ص. 188.

رسما وكذلك جميع الشرائع، وأقمنا ما أقمنا معهم فلم نسمع عندهم أذانا، ولا طرق صوته لنا آذانا، وإن كنت رأيت في أعلى قلعتهم موضعا سموه مسجدا، وليس يصلي فيه إلا رجل غريب من أهل زوارة سكن عندهم، وهم ينتحلون مذهب النكارة من الخوارج البربر ولا يغسّلون موتاهم، ولا يصلون عليهم، ولا يورثون البنت شيئا من مال أبيها، وعيشهم من الغارة على العرب تخرج غازية منهم فتكمن بعض المكامن لمن يمر بها من العرب..."[79] رغم أنه يذكر أنه رأى مفتي غمراسن وتأمل كثيراً ما يحكمُ به: يقول: "فوجدته لا يرجع فيه إلى شيء من حكم الشرع... ولهذا الرجل قوة خطابية على طريقتهم وقدرة على إظهار الأقيسة وضرب الأمثلة..."[80].

وبما أن التجاني قد حكم على الإباضية منذ البداية، فهو ينسب إليها حتى الدفن الأمازيغي القديم قبل الرومان والبيزنطيين، ولا شك أنه رأى مقبرة غمراسن أو رأى قبر غمراسن الأمازيغي التاريخي الذي لا يزال قائما إلى وقتنا هذا، فحاول بطريقته الخاصة ربط ذلك الدفن الجاهلي بالاباضية المسلمين وجاءنا بكيفياته وأسبابه قائلا: "وأهل غمراسن قوم من البربر ورغميون... ومن سيرة هؤلاء... أن لا يدفنوا موتاهم إلا على هيأة الجالس في كهوف متسعة يحفرنها لهم ويتأكد عندهم الدفن على هذه الصفة فيمن توفي وترك ولداً فإنهم يقولون: "عز الولد لا ينقطع ما دام أبوه جالساً" هذه عبارة من سألته منهم عن ذلك وليس لأهل غمراسن ولا لأكثر ساكني هذا الجبل في الحقيقة من الإسلام إلا الإسم فقط"[81].

هذا فضلا عن التناقض الصارخ في قضية المسجد الذي يقول عنه بأنه رأى في أعلى القلعة موضعا سموه المسجد وهو عند التجاني ليس بمسجد. ومن يصلي فيه؟ رجل غريب غرابة هذه الرواية، رجل واحد فقط مع أنه يقول إذا وجد أحد شيئا ذا قيمة أو فائدة في الطريق وهو لشخص آخر يضعه في المسجد ولا يقترب منه أحد حتى يأتي صاحبه فيعرف شيأه فيأخذه[82]. فالمسجد إذاً لا يدخله رجل واحد غريب فقط وإنما يدخله ويؤمه الناس جميعا... ولكن الهوى والتحيز ضد الإباضية عند كثير من هؤلاء البلدانيين جعلهم يتسابقون في التقاط الترّهات وترك الحقائق جانبا.

وقبل أن نختم هذه الدراسة، لا بد لنا أن نشير إلى ما ذكره العياشي عن ورقلة ومزاب، فهو الرحالة العربي الوحيد الذي ذكر مزاب في رحلته "ماء الموائد". أما عن ورقلة فقد دخلها وصلى بمسجد من مساجدها وسبق أن ذكرنا إعجابه بذلك المسجد ولكنه بعد أن يكتشف أن المسجد للإباضية يقول "فلما دخل المؤذن كبر في آذانه أربعاً أول الآذان وأربعاً آخره فأنكرت ذلك في نفسي إذ القوم في ظني مالكية. فلما دخل الناس للصلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيمّمون فقلت: عجباً ما أولائك كلهم من ذوي الأعذار، ثم وقع في نفسي أنهم مزابة روافض، ثم سألنا بعد ذلك فإذا المسجد مسجدهم يصلون فيه وهو معروف بهم وهم طائفة من الإباضية ... يوافقون المعتزلة في أكثر

---

[79] التجاني: ص. 187.
[80] التجاني: رحلة، ص. 188.
[81] العياشي: ماء الموائد من كتاب الجزائر من خلال رحلات المغاربة لـ/ مولاي بلحميسي، ص. 86.
[82] العياشي: نفسه، ص. 86.

عقائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرءان ويبغضون بعض الصحابة وهم كثيرون في تلك البلدان وأهل مادتهم من جبال مزاب فإنهم كلهم روافض وبها علماؤهم وهي على من هو على معتقدهم معظّمة"[83]، فماذا يقول العياشي عن مزاب دون أن يدخلها أو أن يحتك بأهلها فلنستمع إلى قصة العياشي الطريفة ونترك القارئ وحده يحكم إن شاء أن يحكم: يقول العياشي »أخبرني من أثق به من أهل ريغ (توقرت حاليا) من أشياخها أنه مرَّ بهم رجلٌ قاصد المزاب فسأله من هو؟ فقال من أهل البصرة جئت زائراً لبلاد مزاب فقبح الله الزائر والمزور ورده مأزوراً غير مأجور"[84].

ونختم هذه الدراسة بما ذكره الجغرافيون والرحالةً عن صلاة الجمعة وخطبتيها ومنبرها عند الإباضية وكذلك قضية كتمان المذهب وإظهاره إذ الملاحظة العامة المستقاة من تلك المصادر أن إباضية المشرق مظهرون لمذهبهم غير مستترين في حين يبقى إباضية المغرب في الكتمان يخفون مذهبهم ولا يكادون يبينونه إلا أننا نجد اختلافاً عند بعض الجغرافيين والرحالة فياقوت الحموي في القرن السابع الهجري يقول عن عُمان "أكثر أهلها في أيامنا خوارج إباضية... وهم لا يخفون ذلك..."[85] ويقول عن قلهات "أهلها كلهم خوارج إباضية إلى هذه الغاية يتظاهرون بذلك ولا يخفونه"[86].

ومع هذا نلاحظ إبن بطوطة في القرن الثامن الهجري يبدو أنه إقتبس جزءا من نصّ ياقوت الحموي إذ يقول: "وأكثر أهل قلهات بعمان خوارج لكنه لا يقدرون على إظهار مذهبهم لأنهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تمهتين ملك هرمز وهو من أهل السنة"[87].

فأيهما نصدق؟ مع العلم أن ابن بطوطة ذكر سلطان عمان الإباضي[88] ثم إن أهل عمان كلَّهم إباضية كما أكد ذلك جل الجغرافيين فَلِمَ يخفون مذهبهم وهم أهل الدولة والسلطان في تلك البقاع؟

وفي القرون المتأخرة نجد كلاً من الوزّان ومارمول وهما غريبان عن منطقة المغرب وغير مسلميْن يلاحظان قضية كتمان المذهب بالنسبة لإباضية المغرب وهو ما لم يذكره غيرهما من الجغرافيين والرحالة المسلمين فالوزان يتحدث عن سكان جبال نفوسة ويفرن ويقول: "يذهبون إلى ضواحي تونس وغيرهما من المدن حيث يزاولون حرفا بسيطة لكسب معاشهم محترزين من إظهار عقيدتهم خشية أن يتعرضوا لعقاب المتربصين بهم"[89] أما مارمول فإنه يتحدث عن أهالي صفاقس وجربة والجبلَين المذكورين (نفوسة ويفرن) ويقول "رفضوا الإنسلاخ عن مذهبهم ومضوا يكتمون عقيدتهم وذلك خوفا من تعرضهم للعقاب من طرف الفقهاء كلما ذهبوا إلى تونس أو

[83] ياقوت الحموي: معجم، ج،4 ص. 150.
[84] نفسه ج،4 ص. 393.
[85] إبن بطوطة، ص. 180.
[86] نفسه، ص 181.
[87] الوزان، وصف، ص. 105.
[88] مارمول: إفريقيا، ج،3 ص. 131.
[89] إبن حوقل: صورة، ص. 92-93 الإدريسي: نزهة، ص. 180.

غيرها بحثا عن العمل"[90].

لا شك أن مارمول قد أقتبس جزءا من كلام الوزان الذي سبقه إلى ديار المغرب إلا أن كليهما قد شعر أو لاحظ نوعا من الضغط الذي يمارسه على هذه الأقليات الإباضية حكامُ تلك العهود أو فقهاؤهم وقد عانى الإباضية من ذلك عنتا كبيرا ولزمن طويل.

أمّا قضية المنبر في مساجد وجوامع جبل نفوسة وقُراه فقد اختلف كثير من الجغرافيين والرحالة حول وجود المنبر أو عدمه في تلك الجوامع، كما اختلفوا في سبب عدم وجوده فكلّ ذكر رأيه فمنهم من أصاب ومنهم من خبط خبط عشواء لم يصب.

ففي الوقت الذي يقول فيه إبن حوقل والإدريسي "أما جبل نفوسة فجبل عال... وفيه منبران لمدينتين تسمى إحْداهما شروس في وسط الجبل... وبالجبل مدينة ثانية تعرف بجادوا من ناحية نفزاوة وفيها منبر وجامع والجبل بأجمعه دار هجرتهم على قديم الأيام لهم وبه معشر الإباضية والوهبية..."[91] في هذا الوقت يأتي البكري الذي عاش في الفترة ما بين إبن حوقل والإدريسي ليؤكد قائلا: "أم قرى جبل نفوسة مدينة شروس وهي كبيرة... أهلها إباضية ليس بها جامع ولا في ما حولها من القرى..."[92] ويقتبس النص نفسه كل من صاحب الإستبصار[93] وياقوت الحموي[94].

وهكذا نلاحظ أن هناك من الجغرافيين والرحالة من لا يكلف نفسه عناء السفر أو البحث الدقيق وإنما يكتفي بالإقتباس من هذا المصدر أو ذاك حسب هواه فالإدريسي اقتبس ولا شك عن إبن حوقل كما أن صاحب الاستبصار وياقوت الحموي إقتبسا ولا شك عن البكري، وكما اقتبس هؤلاء قضية وجود المنبر أو عدمه في المساجد الإباضية بالمغرب، كذلك اقتبسوا التعليلات والأسباب مع تصرف في ذلك في بعض الأحيان، فالبكري، يبرر ذلك قائلا "... لم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة بهم..."[95] ونفس المعنى نجده عند ياقوت الحموي إذ يقول "لأنهم لم يتفقوا على رجل يأتمون به"[96] أما صاحب الاستبصار الذي اقتبس نص عدم وجود المنبر عن البكري نجده لا يبرر ذلك بالمبرر الذي أتى به البكري وإنما يقول: "لا يرون في مذهبهم الجمعة"[97].

إن أقل ما يقال عن المبرر الأول أنه ساذج وعن الثاني أنه تشنيع وتشويه فمن أين أتوا بمثل هذه المبررات؟ هل احتكوا بالإباضية؟ هل سألوهم؟ لا أعتقد شيئا من ذلك وقع إطلاقا وإنما هي أحكام جزافية على ممارسات دينية مذهبية لمذهب أقلية لذلك لا يجد الجغرافيون والرحالة أي عنت في إلصاق هذا الحكم أو ذاك بهذا المذهب الأقلية لأنه أقلية، ولأنه في نظرهم من الخوارج يمكن أن يصدر عنه كل باطل ويلصق به كل باطل.

---

[90] البكري: المغرب، ص. 9.
[91] مجهول: الإستبصار، ص. 144.
[92] ياقوت الحموي: معجم، ج،5 ص. 297.
[93] البكري: المغرب، ص 9.
[94] ياقوت: المعجم: ج،5 ص. 297.
[95] الإستبصار: ص. 144.
[96] التجاني: رحلة، ص.ص. 125-126.
[97] إبن بطوطة: رحلة، ص. 181.

وفي القرن الثامن الهجري يأتي التجاني صاحب اللسان السليط على الإباضية ليقول "وأما الجمعة فتركها أصل من أصولهم لأنهم يشترطون في إقامتها وجود الإمام العدل"[98].

أما أن يقول إن تركها عند الإباضية أصل من أصولهم فهذا بهتان لأن الإباضية لم يتركوا الجمعة في يوم من الأيام لأن الترك أصل من أصول المذهب، وإنما تركوها فعلا بعد سقوط الأئمة الرستميين وهم الأئمة العدول في نظرهم فشرط الإمام العادل في إقامة الجمعة وارد حقا ويمكن أن يعتبر عند البعض أصلاً من الأصول إلى يومنا هذا فلا يقيم الجمعة ولا يصليها ويمكن أن يعتبر عند البعض الآخر شرطا ثانوياً يمكن أن يقيم الجمعة ويصليها وهو الواقع المعيش إلى زماننا هذا تماما مثلما هو الحال عند الشيعة لا غير.

ونبقى في نفس القرن أي القرن الثامن الهجري ولكن في المشرق هذه المرة مع رحالة مغربي وهو إبن بطوطة الذي يتحدث عن عُمان ويقول "وهم إباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهراً أربعاً، فإذا فرغوا منها قرأ الإمام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن أبي بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلي... ويرضون عن الشقي اللعين إبن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة.

إن أهل عُمان لم يبطلوا صلاة الجمعة في يوم من الأيام وليسوا كإباضية المغرب في الكتمان وقد لاحظ ذلك الكثير من الجغرافيين كما أسلفنا فلست أدري أصحيح ما يذكره إبن بطوطة عن إباضية عُمان أرأى ذلك رأي العين أم هو مجرد قول الناس؟ ومهما يكن من أمر فإن الإباضية عموما لا يرضون عن عبدالرحمن بن ملجم كما يدعي ولا يجعلون له مقاما عندهم ولا يسمونه العبد الصالح ولا قامع الفتنة فابحث في كتب الإباضية فلا تجد ذكرا لعبدالرحمن بن ملجم في طبقاتهم أو سيرهم وإنما قولهم في فتنة الصحابة: "تلك دماء طهر الله منها سيوفنا فلا نلوّث بها ألسنتنا".

أخيراً نقول ما أكثر التلفيقات والترهات والشنائع التي تفنن البلدانيون في حشر كتبهم بها، خاصة ما تعلق منها بالإباضية مذهباً وإنساناً، وقد ألحقت تلك الشنائع بالإباضية عنتا كبيراً، وظل أهلها عبر العصور يقاومون بالقلم، يدفعون عن المذهب الأباطيل ولسان حالهم "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون". ولعل الوقت قد حان للدراسات الأكاديمية المتخصصة أن تؤدي دورها في هذا المجال لتقول للمحق أصبت وللمخطئ أخطأت، وإننا لنرجو أن تكون جامعة آل البيت الرائدة في هذا المضمار.

الخاتمة

وإذا أردنا أن نلخص ما قاله الجغرافيون والرحالة عن الإباضية وجدناهم يقولون دون أن نتدخل في أقوالهم:

الإباضية أتباع عبدالله بن إباض الذي قُتل وكُفي شرّه، هم خوارج من الدين خوارج

[98] قدم البحث أولا في غرداية بالجزائر في المهرجان الثقافي للإصلاح حوالي عام 1999م ثم ثانية في وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت بالأردن في فبراير عام 2000م.

في الدين، نكار وهبية لا يفقهون ولا لهم دين. ولهم رخص كثير في مذاهبهم. وهم زنادقة، أهل فتنة وخروج عن الطاعة. مفسدون في البر والبحر، الشر والنفاق موجود في جبلتهم وهم من بقايا الشرذمة الضالة أحزاب الكفر والنفاق والمروق، أصحاب مذاهب رديئة وأهواء مضلة دمرهم الله جميعاً، ليس لهم من الإسلام إلا الإسم، وهم ذوو أنفس خبيثة وقلوب زواغة لهم ضمائر شر وهم بهائم غلاة في مذهبهم والحرب قائمة فيما بينهم أبداً، أصحاب معتقدات شنيعة وأعمال كسراب بقيعة ومذاهب سوء رديئة، فهذا المذهب المذموم أصل فاسد ينبني على تكفير العصاة بمواقعة الذنوب وصاحب هذا الإعتقاد الفاسد قد ضيع أعماله وخسر حاله ومآله.

طهارتهم ليست بطهارة لا يرون الإغتسال بالماء جملة يتمرغون في التراب تيمما مكان الوضوء، رجالهم ونساؤهم يتطهرون في كل يوم عند الصباح ويتوضؤون ثم يتيممون لكل صلاة، يوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم رجالاً ونساء، أجنبوا أم لم يجنبوا ويشترطون في وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من آرائهم الواهية. وهم فسّاق لا يقولون بالمسح على الخفين. ثياب الجنب لا يقربها الطاهر وثياب الطاهر لا يقربها الجنب. يغسلون الثوب الذي يُجنبون فيه يرفعونه بعصاً أو بمحجن ثم يلقونه في البحر فيخضخضونه بالعصا ساعة ثم بعد ذلك يتناولونه بأيديهم ولا تجد منهم من يعرف للصلاة إسماً فضلاً عن أن يقيموا لها رسماً وكذلك جميع الشرائع. ولا آذان لهم ولا يرون في مذهبهم الجمعة وتركها أصل من أصولهم ولا يغسلون موتاهم ولا يصلون عليهم ولا يورثون البنت شيئاً من مال أبيها إلى غير ذلك من آرائهم الواهية.

وهم يستحلون دماءَ المسلمين وأموالَهم ويتقربون ببيع من يمرُّ بهم من المسلمين للروم النصارى وعيشهم من الغارة على العرب، هم أهل دعارة وعصيان، نساؤهم يكثرن الفساد، سلطانهم يجيز البغاء، لا غيرة عندهم ولا ينكرون الفساد، والزنا الحرام في مذهبهم، أغنياؤهم يبرزون الوصائف على الطريق للفواحش ولهم ديار معدة لذلك فالفواحش عندهم معروفة لا تنكر.

لا مراحض في دورهم وإنما يتبرزون في أفنيتهم يجلس أحدهم لقضاء حاجته فيقف من يبتدر أخذ ما يكون منه ولا يرى نساؤهم في ذلك حرجاً فضلاً عن الرجال وربما تشاجر أو تشاحن على ذلك النفر من الناس فيفوز به أحدهم: يبيعون زبل مراحضهم ويمشي دلال المرحاض بالزبل في الإناء والبلدي أي الريفي يمسك قضاء حاجته يوما أو يومين إن اضطر إلى ذلك حتى يقضيها في مرحاضه ويعيرون بذلك.

يأكلون الكلاب ويستطيبونها وهم يسمنونها ويعلفونها بالتمر ويأكلون لحم الحمار ويبيعونه في أسواقهم وهم يخفون ذلك عن الوارد ويبيعون الخنازير من النصارى ويأكلون في صحون مساجدهم، ولا يماسح أحد منهم ثوب غريب ولا يمسه ولا يؤاكله ولا يأكل له في آنية ورؤساهم من فراعن الجزيرة (يقصد جربة).

هكذا نلاحظ أن الجغرافيين والرحالة قد التقطوا كل شنيعة من أفواه السوقة والعامة تمس الإباضية بسوء، ونحن لا ندّعي أن الجغرافيين والرحالة هم الذين اخترعوا أو وضعوا تلك الشناعات وإنما أقصى ما يمكن أن نقول إن أولائك البلدانيين لم يلتزموا الأمانة في التدقيق من الأخبار والتروي في تسجيلها حتى تتأكد عندهم برؤية العين أو

بالسماع المباشر، أما أن يحْتطِبوا بتلك الكيفية الأخبار والترهات والشناعات فذلك ليس من شيم ذوي المروءات ثم استسْهال تسجيلها وروايتها وتخليدها في بطون الكتب لا نرى له مبررا إلا كونها منسوبة للإباضية وليس لمذهب آخر غير الإباضية: ومن تكون هذه الإباضية؟ إنها أقليات متناثرة هنا وهناك في المشرق والمغرب لا حول لها ولا قوة كل ما يقال عنها يمكن أن يكون حقيقة ويمكن أن يكون واقعا. ونقول هذا دون أن نستبعد بعض الأمور التي ذكروها وإن كانت من التشويهات التي لحقت بالإباضية الوهبية عن طريق الخوارج الغلاة من جهة وعن طريق النكار من جهة أخرى وهو ما أسلفنا عنه القول، كذلك كثيرا من الأمور التي ذكروها ليست خاصة بالإباضية وإنما هي عامة، إلا أن الجغرافيين والرحالة أعطوها الصفة السلبية ولفقوها للإباضية تشهيراً وتشنيعاً...

فما هو العمل تجاه هذه المنكرات من القول؟ أرى من الضروري بل من الأمانة العلمية أن يتحرّى الباحثون المعاصرون في المذهب الإباضي خصوصا المنهج العلمي الدقيق وهو التثبت من صحة الرواية وصحة نسبتها ومعقوليتها أو عدم معقوليتها ثم أمر خطير وهو عدم التعميم فكم من باحث يتخذ مما ورد في كتب المخالفين للإباضية مصدراً له يسقطه على إباضية القرون المتأخرة عموما وإباضية القرن العشرين خصوصا ويدعي مع ذلك البحث والدقة والموضوعية والأمانة وقد قتل كل ذلك من حيث يدري أو لا يدري.

إن أحسن وسيلة لمعرفة الإباضية القائمة اليوم في المشرق والمغرب هي الإتصال بها مباشرة في المشرق والمغرب والإحتكاك بها وبكتبها المتناثرة في المكتبات العمومية والوطنية في مختلف بلدان العالم دون أن ننسى الكتب التي تبقى في المكتبات الخاصَّة للإباضية في مواطن وجودها، مثلهم في ذلك مثل جميع البشر في جميع أصقاع العالم لا غير...

إن إباضية اليوم إباضية واحدة وهي كلها وهبية لا وجود للنكار أو غيرها من الفرق الأخرى التي نسبت للإباضية أو انشقت عن الإباضية، ومع ذلك ظل المؤرخون والكتاب عموما يلصقونها بالإباضية، لذلك يجب التحري عند الحديث عن إباضية اليوم والأمس فلا أعمال الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدات والعجاردة والصفرية بأعمالٍ للإباضية ولا معتقداتهم بمعتقدات للإباضية وكلهم قد انقرض وانتهى كما أن النكار وقد انقرضوا ليسوا إباضية وهبية فالأمانة والتحري مطلوبان في البحث العلمي عموماً وفي البحث عن الأقليات أو المذاهب الأقلية خصوصاً وبشكلٍ أوكدٍ.

المراجع المستخدمة في البحث

1. إبن بطوطة محمد بن عبد الله (ت 779هـ): الرحلة المسماة: "رحلة ابن بطوطة" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتاني: مؤسسة الرسالة ط4، 1985 بيروت، وانظر كذلك طبعة دار الكتاب اللبناني والمصري، بيروت، القاهرة، بلا تاريخ الطبع.
2. إبن جبير محمد بن أحمد (ت 614هـ): الرحلة المعروفة برحلة ابن جبير، دار صادر ودار

بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1964.
3. ابن حوقل أبو القاسم النصيبي (ت 327هـ): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة: بيروت 1979.
4. ابن سعيد المغربي علي بن موسى (ت 685هـ): كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر 1982.
5. ابن الفقيه الهمداني أبو بكر أحمد بن إبراهيم: مختصر كتاب البلدان، ليدن بريل 1302هـ.
6. ابن هطال أحمد التلمساني (ق11هـ/ 17م): رحلة محمد الكبير باي المغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبدالكريم، نشر عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1969.
7. الإدريسي أبو عبدالله الشريف: (ت 548هـ)، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
8. الإصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري): المسالك والممالك، انتشارات كتابخانة صدر بريل 1927.
9. البكري أبو عبدالله (ت 487هـ) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد، مطبعة الحكومة، الجزائر، 1857.
10. التجاني أبو محمد عبدالله بن محمد (عاش في القرن الثامن الهجري): رحلة التجاني، تقديم المرحوم ح.ح عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس 1981.
11. الزهري أبو محمد بن أبي بكر (ت في أواسط القرن السادس الهجري): اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق
in Bulletin d'Etude Orientales, Institut Français de Damas Tome XXI, 1968 Imp. Catholique Beyrouth 1969.
12. العبدري محمد البلنسي (ت ق7هـ) الرحلة المغربية، تحقيق أ. أحمد بن جدو، مطبعة البعث، قسنطينة، نشر كلية الآداب الجزائرية، بلا تاريخ طبع.
13. العياشي أبو سليم عبدالله بن محمد بن بكر (ت سنة 1090هـ/ 1679م): ماء الموائد، مقتطفات منها ضمن كتاب د. مولاي بلحميسي. الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت. الجزائر ط2: 1981.
14. القزويني زكرياء بن محمد (1203-1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1979.
15. القلصادي أبو الحسن علي الأندلسي: (ت 891هـ) رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان ط2، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1985م.
16. ليون الإفريقي الحسن بن محمد الوزان الفاسي: (ت 1552) وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.
17. مارمول كرباخال (ت ق 11هـ/ 17م) إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر وآخرون، نشر دار المعرفة الرباط، 1989م.
18. مجهول (عاش في القرن السادس الهجري): الإستبصار في عجائب الأمصار، تعليق سعد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958م.
19. المقدسي شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البنا (ت 388هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط2، مطبعة بريل ليدن 1906م.
20. ياقوت الحموي (ت 626هـ) معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1977م.
21. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ): البلدان، مطبعة بريل، ليدن 1891. □